1997.208-0008-2

على الأقل

الياس خوري

الكلام المهرّب

في كتابه "اسئلة الرواية، اسئلة النقد" (منشورات شركة الرابطة، الدار البيضاء ١٩٩٦)، يستعير الناقد والروائي المغربي محمد برادة فرضية "تهريب الكلام"، ليرسم آفاق الرواية العربية.

كي نقول ما لا يقال، علينا ان نهرّب الكلام، ونهجّن اللغة، ونسافر الى الاماكن الممنوعة داخل جسد الكتابة العربية.

"هل نبالغ اذا قلنا ان الرواية العربية تقول ما لا يقال في محافل الكلام الاخرى؟ انها تغدو بمثابة تهريب للكلام، اذا استعرنا تعريف ادونيس للكتابة. وعندي ان الرواية ترقيق واع يتوخى تهجين الوحدة المتوهمة في اللغة والعلاقات الاجتماعية...".

برادة، في الاسئلة التي يطرحها على الرواية العربية، يقوم برحلة الى المناطق السرية في النص العربي المعاصر، مستولداً الكلام من الكلام، والرواية من الرواية، كي يصل الى التصور اللغوي "الملتصق بالرحم المولد للنص"، والذي "يجعل من الرواية مستقبلاً باستمرار".

الادب حوار مع التاريخ والمعيش والتجربة.

والنقد حديث الى الادب، لا مجرد حديث عن الادب.

في هذه المعادلة، يقرأ برادة مجموعة من الروايات العربية الطليعية، كي يصل الى استنتاجه الذي يشكل في رأيي منعطفاً نقدياً، يفتح التعبير الروائي على احتمالاته الجديدة التي لا حدود لها.

"ان الادب العربي الطلائعي، تخطى اطار الدعوة الايديولوجية، وتخطى اطار الدعاية والتبرير.

لقد اصبح مجالا لمحاورة الايديولوجيات، ووضعها موضع تساؤل، من خلال التقاط المعيش والمستجد، واستثمار العلاقات والرموز واللغات الملتصقة بفضاء المجتمع الجديد".

من هنا، نستطيع ان نقرأ تجارب المنافي والسجون والحرب والتفكك الاجتماعي والحب والعلاقة مع الماضي، التي قامت الرواية العربية الجديدة بصوغها، على هامش الضجيج الاعلامي، والفراغ الروحي، والقمع، الذي هيمن على الحياة العربية، منذ هزيمة حزيران ١٩٦٧.

هل الكاتب مهرّب؟

لن اتوقف عند النمذجة التي يقترحها برادة للرواية العربية، لكني استطيع القول انها تفتح آفاقاً جديدة امام النقد العربي، لانها تؤسس لمنهجية الحوار مع النص، عبر وضعه في اطارين متداخلين: التاريخ الادبي والتاريخ الاجتماعي، من دون ان يهيمن احدهما على الآخر، ومن دون ان يتحول النقد بديلاً من السياسة الممنوعة.

ما استوقفني في الكتاب، هو فكرة التهريب.

هل نحن مهربون؟

هل الكاتب مهرب؟

وكيف تم تحويلنا مهربين، ومنعت عنا حرية ان نكون حيث يجب ان نكون، في قلب السؤال الفكري والاجتماعي؟

هل الكتابة هامش حرية؟

ولماذا صارت اليوم الى هامش الهامش، بينما المتن امام خيارين لا ثالث لهما: الديكتاتورية او الحرب الاهلية؟

ما نكتشفه في كتاب برادة، هو ان التهريب الذي بدأ مع رواية الستينات، نجح، من حيث لم يتنبه احد، في تأسيس الخلخلة التي ترددت امامها الثقافة العربية طويلاً.

تمت خلخلة اللغة، ومعها امتد التخلخل الى كل شيء. انكسر النموذج الروائي الغربي وانكسرت قدسية الموروث، وانفتحت الكتابة على المعيش ولغته ومشكلاته، ووجد الادب ادبيته خارج بلاغة اللغة القديمة وقيمها وحدودها.

وفي موازاة التهريب الادبي، كانت المجتمعات العربية، تهرّب مراياها واحدة بعد اخرى. ففي مجتمعات يسودها التخشب السلطوي، حيث السلطة فوق المجتمع وصنوه، وليست تعبيراً ولو جزئياً عنه، تم تهريب كل شيء. وانفجر التهريب في وجوهنا، على شكل عالم من الانهيارات، كانت تجربة لبنان، تجسيدها الاكثر وحشية وصدقاً ومأسوية.

هرّب الادب المرآة.

وهرب المجتمع الازمة.

ونحن اليوم، نقف متواجهين، ازمة تتفجر ومرآة تتكسر، وبينهما تقف السلطة السياسية، وكأنها مجرد اداة قمع.

ولكن مهلاً.

في كتاب برادة، نكتشف ان السلطة، رغم امتلاكها كل وسائل القمع، كانت عاجزة عن منع التغير الكبير، الذي بدأت ملامحه الثقافية الجديدة ترتسم في الافق. وفي هذا المعنى فان الافتراض المهيمن في الاوساط الثقافية العربية، عن مسؤولية القمع في شل الكتابة، يتهافت، ويفقد معناه.

فالسلطة، منعت رواية "تلك الرائحة" لصنع الله ابرهيم، حين صدرت في اواسط الستينات، وطردت غالب هلسا من مصر، ومنعت روايته "ثلاثة وجوه لبغداد" من دخول العراق، وصادرت "سفينة حنان الى القمر" لليلى بعلبكي، والى آخره... لكن انظروا الى النتائج. هل اختفت "حديقة الحواس"، ام ان المنع والقمع والمصادرة، لم تكن لها الا تأثير آني، سرعان ما تساقط، وبقيت الكتب شاهداً للحقيقة.

المسألة اذن، ليست في التهريب.

المسألة في المهربين.

وهنا يقع السؤال، الذي لم يطرحه محمد برادة في كتابه. حسبه انه اشار اليه، فارضاً علينا ان نعيد صوغ اسئلتنا من جديد، انطلاقاً من رؤيتنا هذا التحول الكبير الذي احدثه النص المهرب في جسد اللغة.

لماذا اذن؟

لماذا بقيت الكتابة العربية، عند حدود الممنوعات. لماذا لم تنكسر كل الممنوعات، لنجد انفسنا امام حريتنا؟

هل لان الحرية اخطر من العبودية؟

هل لاننا نخاف حريتنا، فنلجأ الى اختراع الممنوعات، كي لا نكسر القشرة وندخل عوالمنا الداخلية، ونكتشف الانسان الذي فينا؟

المدينة المخطوفة

فاجأتني الاسئلة، وانا اقرأ الاجوبة التي نجحت الرواية العربية في بلورتها، في زمن التهريب الادبي، الذي عشناه منذ المواجهة الناقصة بين طه حسين والشعر الجاهلي.

فاجأتني، وانا اشاهد فيلم عمر أميرالاي عن ميشال سورا.

فاجأتني، وانا اقرأ، الذي لم يكتب بعد، لاننا لا نمتلك جرأة كتابته.

فاجأتني، وانا ارى اشباحنا الهائمة فوق هذه المدينة المخطوفة التي اسمها بيروت.

والسؤال الذي يؤرق، هو كيف استطيع انا، الخارج من اتون الحرب اللبنانية، والمحترق في اتون الحروب التي يفرضها الاحتلال الاسرائيلي، والتفكك الذي تصنعه انظمة القمع. كيف استطيع انا اللبناني الملوث بضميري، ان اتصالح مع نفسي، ومع تاريخي؟

فالقضية ليست فحسب قضية الاف المخطوفين اللبنانيين، الذين يبحث اهلهم، نتيجة قانون "التمويت الاختياري"، عن وسيلة كي لا يشاركوا في جريمة قتلهم.

والقضية ليست ميشال سورا، الذي مات في اقبية ظلام الخطف والرهائن، الذي صنعته الحرب اللبنانية، في مرحلتها الانهيارية.

والقضية ليست مئات آلاف المهجرين والمشردين، وضحايا المذابح الجماعية.

القضية هي كل هؤلاء طبعاً، ولكن معهم وعبرهم ومن خلالهم، قضية الضمائر الملوثة.

لن اكتب عن الذاكرة والنسيان، ولن اعود الى حكايات تلك الايام، حين كانت الاكياس التي تغطي رؤوسنا، علامتنا الوحيدة.

اكتب الآن، وعن هذا الآن.

اكتب، وانا اشاهد ذلك المعتقل المجرد، الذي صنعه عمر أميرالاي، من اشياء الحياة التي تمحى.

اكتب كي اتساءل، انا الخارج من وحل التاريخ، عن علاقتي بالتاريخ؟

انتظرنا سبع سنوات.

قلنا انتهت الحرب، والآن ستبدأ محاكمتها.

انتظرنا ان يخرج سياسي واحد، رجل واحد على الاقل، امرأة واحدة، كي يقول/ تقول انه لا يمكن الخروج من المأساة عبر طمرها في النسيان.

لكن انتظارنا كان عبثيا.

فالسياسيون اصغر من التاريخ.

وهماً، كنا ننتظر.

هل ننتظر القاتل ومرتكب المجازر والسارق والخاطف، كي يأتي الى ضمائرنا ليغسلها بماء الحقيقة؟

وهماً انتظرنا، وآن لنا ان ندير لهم ظهورنا، ونبحث في مكان آخر.

فالكلام الذي يضمد جروحنا، يجب ان يأتي من مكان لا علاقة له بكل هذه الامكنة التي تخيم فوقنا.

ماذا ننتظر؟

ليس صحيحاً ان الثقافة ماتت في بيروت، عندما تم خطف المدينة.

وليس صحيحاً ان افواج المرتزقة الذين ملأوا الشاشات والاحتفالات، هم ثقافتنا الجديدة الملائمة لهذا الزمن التافه.

لا، فالكلام المهرب لا يزال هنا.

لكنه يحتاج، الى ايمان جديد.

ايمان بأننا خارج هذه الدائرة، وان السؤال لا يطرح على هذه السلطة او على اي سلطة.

السؤال تطرحه الكتابة، حين تكون الكتابة جزءا من المعيش. حين نكتب كما نعيش ونعيش كما نكتب. حين لا يحدنا سوى التجربة، ولا يخيفنا سوى قلبنا، ولا يمنعنا شيء عن قول ما نشعر به.

السؤال تصنعه الكتابة.

كتابة لا مفر من تهريبها، كي تبقى خارج آلة السلطة، وجزءا من الصوت الذي لا صوت له، ومن الكلام الذي يبحث عن كلماته.

فاجأتني الاسئلة، وانا امام صور المخطوفين، او امام مشاهد السجن التجريدي الذي مات فيه ميشال سورا.

فاجأتني، لاننا يجب ان نفاجأ دائماً بحقيقتنا.

يجب ان تبقى هذه الحرب مفاجأتنا الدائمة بالانسان، الذي يتحول وحشاً، حين تضيع منه روحه، ويتم اغراقه في وحل الطوائف والغرائز.

تعالوا نهرب كلماتنا.

تعالوا نكتبها كي نهربها منهم ومن زمنهم ومن قيمهم.

هناك، في هامش الهامش، يلتقي المهربون والفارون من ظلم الارض، في البحث عن الحرية والعدالة.